www.shabcenter.ly
info@shabcenter.ly

برعاية المدار الجديد

ابحثوا عمّن اعتفروا تدم لكم النعم

د. خالد مريود

قال -تعالى- في محكم تنزيله:

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ (1) إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ (2) فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ (3) ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ (4).

صدق الله العظيم سورة (قريش).

تناقش هذه السورة العظيمة، قضية هامة، من قضايا المجتمع، ومشكلاته الحياتية المتعددة الأوجه؛ وهي: (إلفُ النعمة)، والاعتيادُ عليها، وعدمُ شكرها؛ وقد تكون مشكلة قديمة، لكنّها متجدّدة بتجدد الحال والمآل، والمكان والزمان.

فقد كانت قريش في قديم عهدها معتادة على حياة الفقر والجوع، وحياة البداوة والبساطة، لدرجة أنّ أحدهم عندما يصل شدة الفقر، يأخذ أهل بيته لمكان يُسمَّى: «الخباء»، فيمكث فيه حتى يموتوا جميعا، حتّى أصبح الأمر عندهم عادة تسمّى: «الاعتفار»، وكانت بنو مخزوم من عائلات قريش الكبيرة، فاشتدَّ فقرهم، ودخل الجوع ديارهم، فقرَّروا أن يدخلوا (الخباء)؛ ليموتوا من شدة الجوع؛ وعندما وصل الخبر لهاشم بن عبد مناف- وكان من عِلْية القوم، وأكابرِ تجُّارهم- استاء من وجود هذا الجهل والفقر في أهل البيت الحرام، فقرّر أن يغيّر تلك العادة، وأن يحُلّ المشكلة، التي حلّت بقومه.

فجمعهم، وقال لهم: أنتم أحدثتم عادة تُذَلُّون بها بين العرب؛ وأنتم أهل بيت الله الحرام، والناس لكم تَبَع، وقام بتقسيم القبيلة إلى عشائر، وأمر كلَّ غنيٍّ منهم بتقسيم ماله على الفقراء، حتّى أصبح الفقير منهم مثلَ الغنيّ، وعلَّمهم أصول التجارة، ونظّم لهم رحلتين في العام، رحلةٍ للشام، ورحلةٍ لليمن، ففي رحلة الشام علَّمهم تجارة الفواكه في الصيف، ورحلةِ اليمن علّمهم تجارة المحصولات الزراعية في الشتاء؛ فعمّ الخير والرخاء مكة، وأصبحوا في رغدٍ من العيش، وفي أحسن حال حتّى انتفت ظاهرة (الاعتفار).

لكـن مـا لبثت قريـش أن بدأت كفران النعم، وعدمَ شـكرِ الله عليهـا؛ وكفرانُ النعـم هـو أن تألَفهـا النفـس، فلا تراهـا نعمة، وعندمـا أَلِفت قريـش النعم التي أنزلهـا الله عليهـم، نـزل فيهم الأمر الإلهي: بأن يعبدوا ربَّ هـذا البيت ﴿فليعبدوا ربّ هـذا البيـت الـذي أطعمهـم مـن جـوع وآمنهم من خـوف﴾. فإن لـم يعبدوه لسـائر نعمـه، فليعبـدوه لهـذه النعمـة الظاهـرة وهـي دوام النعمـة، وإطعامُهم بعـد الجـوع؛ وتأمينُهـم بعد اعتيادهـم العيش فـي رعبٍ وخـوف ﴿أطعمهم من جـوع وآمنهم مـن خوف﴾.

اليـوم يماثـل حالُنا ذلـك الحال؛ تجد الواحدَ منَّا لديه الصحـةُ، والعافية، والأبناء، والبنـات، والـدار، ومـن المال ما يعولـه، ويفيض، لكنّـه غير مكتـرث، وغير راضٍ عمّـا فيـه مـن نِعم؛ تجـده دائمَ الشـكوى؛ فالصحـة والعافية نعمـة، النظر نعمة، السـمع نعمـة، الأرجل التي تمشـى بها نعمـة، اليدان نعمة، الغيـث الذي يهطل اليوم علينا مدراراً نعمة، ونعمة تستوجب الحمد، والشكر.. كلُّ حياتنا، وحركاتِنا، وسـكناتِنا، هي من نعم الله علينا؛ تسـتوجب شـكره؛ لأنّ مجرد دوام النعمة هو نعمـة، وعدمُ شـكرها جحودٌ وظلم.

قال أحد العلماء الأجِلَّاء:

ابحثـوا فيمـن حولكم، وتحسَّسـوا، فهنـاك أناس قـد اعتفروا، فعزَّة أنفسـهم، وإظهـار تماسـكهم يُخْفـي أوجاعهـم، أدْرِكوهـم قبـل أن يتمكَّـن اليـأس منهـم، ويُجْهِـزَ عليهم، وقتها سـيَخرُجون مـن خِيمهم حفاة بثياب مهترئـة؛ لينامـوا تحت الجسـور، ويَهيمـوا علـى وجوههم في الطرقـات، وقتَها لن تسـتطيعوا إنقاذهم؛ لأنهـم أصبحوا جسـدًا بلا رُوح.

تعالـوا؛ لنـرى معلـم الهدى -صلـى الله عليه وسـلم- وهو يتحـدّث عنهم، فيما يرويـه أبـو هريـرة -رضـي الله عنه- أن رسـول الله ﷺ قـال: « ليس المسـكين الـذي يطـوف علـى الناس، تـردّه اللقمـة واللقمتـان، والتمـرة والتمرتـان، ولكن المسـكين الـذي لا يجـد غِنًـى يُغنيـه، ولا يُفطَـن لـه؛ فيُتصـدَّقَ عليـه، ولا يقومُ فيسـأل النـاس ". (متفـق عليه).

يقول الدكتور خالد السبت:

ليس المسكينُ الذي يطوف على الناس بمعنى : أنّه ليس المسكين حقيقةً الذي يكون أولى الناس بهذا الاسم، أو تحقُّقِ هذه الصفة وهي المسكنة: هو ذلك الذي يطوف فيسأل، مع أن الذي يطوف، ويسأل إذا كان يفعل ذلك من حاجة، وفقر فلا شكّ أنّه مسكين، ولكن النبي ﷺ قصد بيان الأحقِّ بهذه التسمية، والأجدر بها، وهو ذلك الإنسان المتعفف؛ لأن هذا الذي يطوف على الناس، ويسأل فإن الناس يُعطونه ما قد يكون به سدُّ جوعته، وأيضًا يعرف الناس أن هذا الإنسان محتاج وفقير، فيتعاهدونه، ويعطونه، ويطلبونه، وما إلى ذلك، فلا يضيع، لكن الذي لا يسأل لا بلسان المقال، ولا بلسان الحال، فكيف يعرف الناس أنه محتاج؟ فيبقى في بيته يعاني شدة الجوع والمسغبة هو وعياله، والناس يظنّونه في غنى، وعافية، وسعة من الله -تعالى- فهذا هو المسكين حقيقة؛ لأنّ أصل المسكنة مأخوذ من أن أطرافَه وجوارحَه وأبعاضه كأنّها سكنت من شدة فقره، فالذي يسأل الناس من حاجة هو مسكين، لكن هذا أحقّ وأجدر بهذه التسمية.

وفي حديث رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر -رضي الله عنه- أن رجلًا جاء إلى النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فقال يا رسول الله: أيّ الناس أحبُّ إلى الله؟ وأيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أحبّ الناس إلى الله -تعالى- أنفعهم للناس، وأحبّ الأعمال إلى الله -تعالى- سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كُربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولَأَن أَمشيَ مع أخ في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد -يعني مسجد المدينة-شهرًا، ومن كفّ غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ـ ولو شاء أن يُمْضيه أمضاه ـ ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتّى يُثبتَها له، أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام. رواه الطبراني.

فهيّا معا لنجعل من حياتنا وردا من الحمد لله على نعمائه وإفضاله علينا؛ لنحمد الله أن أوجدنا، ووهبنا هذه الحياة التي نعيشها.